الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة الشؤون الدينية

ملتقى الفكر الاسلامي الثاني والعشرون

الأمة الاسلامية

وحدتها ووسطيتها

دراسة تحليلية
لاسباب الوضع الحالي للأمة الاسلامية
- دراسة -

الدكتور عبد الحميد شيران
أستاذ الحضارة الاسلامية بالمعهد الوطني العالي
لأصول الدين - جامعة الجزائر -

بسم الله الرحمن الرحـــــيم

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد سيد المجاهدين وعلى آله وأصحابه الطاهريـــــن .

الموضوع : النقطة الثالثة ، دراسة تحليلية لأسباب الوضع الحالي للأمة الاسلامية ، العوامل الداخلية والخارجية التي ساهمت في تفتيت وتشتيت المجتمع الاسلامي المعاصر ثقافيا وايديولوجيا وجغرافيا .

بحث يتقدم به الدكتور عقبة عبد الحميد شيران .
أستاذ تاريخ الحضارة الاسلامية بالمعهد الوطني العالي للشريعة وأصول الدين ، (الجزائر) ، في اطار ملتقى الفكر الاسلامي الثاني والعشريـــن

أيها الاخوة ، أيتها الأخوات ، ان محاولتنا المتواضعـــــة هذه ترمي بالدرجة الأولى الى شرح الوضع الذي آلت اليه حالة المسلمين بعد أن تألق نجمهم ، تلكم الحالة التي أقل ما يقال عنهـا أنها حالة يرثى لها ، وترمي بالدرجة الثانية الى تحليل أهـــم العوامل الداخلية والخارجية التي ساهمت في تفتيت الوحدة الاسلاميـــة وتقسيم وتجزئة العالم الاسلامي المعاصر ثقافيا وايديولوجيا وجغرافيا .

لقد نوه المولى تبارك وتعالى بالأمة المحمدية في مواطن كثيرة في كتابه العزيز ، من ذلك قوله جل وعلا : (وكذلك جعلناكم أمة وســـطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) سورة البقرة : الآية 143 .

لقد عاش المسلمون حينا من الدهر سادة وقادة وأعلام هداية ومنارات للبشرية ونجوما للحضارات وأقمارا منيرة السبل للضالين والحيارى ، سعدوا

/ .

بعقيد تهم و شريعتهم وأسعدوا غيرهم ،كما عا شت أ متهم معيشة العـــز والكرامة بين الأ مـــم يوم ان كانت خيرأمة اختارها الله لقيا دة الأ مم الى شا طيء السلا مة والنجارة ، كما جاء في التنزيل : (كنتم خيرأمـــة أخرجت للناس تأ مرون با لمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون با لله) سو رة آل عمران : الآ ية 110 .

فكانت بذلك قولها الحق وحكمها الفصل ،تأ مر فتطاع ،أ نجبت رجالا ونساء عجزت أرحام نساء مجتمعنا الحاضر بالاتيان بمثلهم .

عاشوا أطهارا في أروا حهم وأجسا دهم وحققوا انتصارات ما دية وروحية ومعنوية بنقل أ نفسهم من الحرمان والجا هلية الى الغنى ونو ر الاســلا م كانوا كا لجسد الواحد يستمدون الأ حكام لكل قضا يا هم الشخصية والعمو ميـة من منهج يمتاز با لشمو لية والكمال، فأ سسوا أمـة واحدة قوية متما سكـــة ومنسجمة تؤ من برب واحد وتقتدي بشخصية النبي الأ كرم محمد صلـــى الله عليه وسلم ، تلكم الأ مـة التى لم تكن تعرف الخضوع لأ حد من غيـر الله اذ كان شأ نها الا قدام وتحقيق العزة والسيادة والانتصار بحيث لـــم يبق الاسلام منحصرا في الجزيرة العربية بل أوصلوه الى بلدان أ خـرى فكان كا لسحا بة تمطر غيثا وعدلا وأ منا ،فكانت وجهتهم وغا يتهم وا حـــدة وكان هد فهم واحد فملكوا وفتحوا وحققوا ما كان يعتبر من عالم الخـــوارق مصداقا لقوله تعالى : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصا لحات ليستخلفنهم في الأ رض كما أ ستخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضـى لهم وليـبد لنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا) سورة النور : الآ ية 55 .

./.

لقد كانت حقا أمة شريفة أنجبت شرفاء وعظيمة أنجبت عظماء وطاهرة أنجبت أطهارا فأعزها الله بين الأمم ونصرها على من ظلم وطغى وتجبر.

لقد شهدت الانسانية بميلاد هذه الأمة حضارة فريدة شملت العقيدة والعبادات والمعاملات والثقافة والخلق الحسن ،قال تعالى :(يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم) سورة الأنفال: الآية 24. فبها استبشر العالم كله وأيقن بأن وجودها ضرورة بشرية وضرورة شرعية لقد تم ذلك بفضل تمسك المسلمين الأولين بشريعتهم تمسكا كاملا شاملا عقيدة وعبادة وأدبا ونظاما وتشريعا وسلوكا وخير دليل على ذلك ما سجله لنا الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه في قولته الخالدة: (كنا أذلة فأعزنا الله بالاسلام ، فاذا ابتغينا العزة في غير الاسلام أذلنا الله) .

لقد طور المسلمون حضارتهم وحسنوا وضعيتهم اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وثقافيا وخلقيا بفضل اعتمادهم على أنفسهم وانطلاقهم في كل مساعيهم من شريعتهم الغراء المختصة بالكمال وبالتصورات الواحدة والمنهج المشترك فعاشوا تحت حماية الدستور القرآني يرعى لهم الحقوق ويسطر لهم الواجبات ،واستمر الحال كذلك عدة قرون عرفت الحضارة الاسلامية أثناءها ازدهارا وتطورا فاق كل التخمينات والتصورات في جميع أوجه الحياة بحيث حرر الاسلام العقول من الأفكار الساذجة والاعتقادات الخرافية الزائفة وأضاء للنفوس سبل الرشد والنجاح كما حث في المجال الاجتماعي على العمل وطلب الرزق ،وحارب الظلم والاستغلال والعبودية والتواكل.

هذا ويوم أن تخلت الأمة الاسلامية عن تعاليم دينها وقوانين دستورها تخلى الله عنها وقذف في أوساطها الرعب والجبن والذل

./.

(نسوا الله فأنساهم أنفسهم) ، فصارت في العهود الموالية لم تحسن المحافظة على السيادة والتراث فبدأت قضايا كثيرة وأسباب متنوعة تتسرب لصفوفها ووحدة مجتمعها فتفرقت شيعا وفرقا وطوائف وأحزابا طفقت تهتم بالفروع والنوافل دون الأصول والفرائض وذهبت كل طائفة تخوض مع الخائضين في الجزئيات والهوامش تهدم صرح الاسلام أكثر مما تبنيه، فظهرت الى الوجود الفرق الاسلامية كالخوارج والمرجئة والشيعة والمعتزلة ورجال التصوف فراح بعضهم يدرس الفقهيات وانطلق الآخر لدراسة علم الكلام في حين حصر البعض الآخر الاسلام في التصوف والخلوة، فطبقت هذه المذاهب على الفروع فصارت هي الأخرى مطية لاثارة الجدل العقيم الذى أدى بأصحابه الى التنافر والتدابر والتناحر، وحينئذ شرعت الحضارة الاسلامية في الافول تنقطعت أوصالها وتقسمت أجزاءها وانفصمت عراها نتيجة عوامل داخلية انبعثت من أبنائها وأخرى خارجية سلطت عليها من أعدائها الذين ناصبوها الكراهية والحقد والكيد منذ أن بزغت شمسها ، فدب الفساد الداخلي ، فسهل للاعداء التمكن من النفوذ الى صميمها وفعلوا فعلتهم . ومع ذلك فبالرغم من هذا الوضع الذى لا تحسد عليه كانت النظم القديمة تقوم بوظيفتها حيث كان الولاء واضح الحدود والمعالم وكانت المسؤوليات توحد جميع فئات الأمة في اطار واحد ، غير أن هذه الأساليب والقيم القديمة تلاشت وسخر منها وقامت مقامها مجموعة من المؤسسات والقوانين والمقاييس الوضعية المستوردة من الغرب والتي بقيت غريبة هي الأخرى لمدة طويلة عن أحاسيس وآمال المسلمين فظلا عن كونها تافهة ولا تلبي رغبة حاجاتهم .

العوامل الداخلية والخارجية :

أولا : العوامل الداخلية : من الأمور المسلم بها أن العوامل الداخلية أشد خطرا . على الأمة في زعزعة أسسها تقويض أركانها لأنها ارهاصات ضعف وخور وتجزئة ، وهي عوامل جمة قسمت العالم الاسلامي الى وطنيات وقوميات وعرقيات وجهويات واقليميات ، صدعت صرح المجتمع الاسلامي وغدرت أبناءه تخديرا لم يصحوا منه بعد ، انها دعوة الجاهلية الأولى تعود في صورة جديدة وفي ثوب جديد تشتم منها رائحة النعرات ان القبلية الجاهلية الممقوتة والمحرمة شرعا ، فأخذت تدب في شريان الأمة وكانت أخطر مما يتصور لأنها حرب أهلية على مستوى العالم الاسلامي ،

ومن جملة هذه العوامل الداخلية التى جعلت الأمة الاسلامية تستكين المستعمر من نفسها بنفسها :

أ ـ الجهل والعلم الناقص: توقفت الحركة العلمية الاسلامية الزاهرة التى بفضلها أقام الغربيون حضارتهم ، فانتشر الجهل وهو شر ما تبتلى به النفوس والأمم وأخبث مرض يفتك بالمجتمعات ، ذلك أن في ظل الجهل يظهر الكفر وينتشر الفساد والخراب الذى يهلك الحرث والنسل ، غير أن للجهل علاجه ودواءه اذ تصدى الكثير من علماء الاسلام الربانيين لهذه الآفة وسرعان مايرجع الجاهل عن غيه ، في حين أن البلوى الكبرى التى ما زال المجتمع الاسلامي يتجرع ويلاتها هي مصيبة العلم الناقص لأنه أشد وأنكى من الجهل البسيط ، فالعلم الناقص يجعل الأمة تسير تحت ظل أناس لا يفرقون بين المنطلق ولا المصير ولا يدرون ما السبب الذى جعلهم يسلكون هذا الطريق أو ذلك .

./.

ولذلك قال المرحوم شكيب أرسلان : (الابتلاء بجاهل خير من الابتلاء بناقص علم ،اذ أن هذا الأخير مغتر بنفسه فهو لا يقبل برهانا ولا يستجيب لحجة دامغة) فبانتشار الجهل والعلم الناقص تعطلت الطاقات وحل محلها الانبهار بعلوم الغرب الذى غرس في المسلمين القنوط واليأس وجعلهم يعتقدون أنه لا جدوى من مناظرته وكل محاولة في ذلك يكون مآلها الفشل ب ومن المسلمات أيضا فان الاسلام وازن بين المادة والروح فهو يريد من المسلم أن ينطلق بجسده في الأرض معمرا وبانيا تاركا روحه دائمة الاتصال بالسماء ،ذلك هو المنهج الاسلامي الذى تفرد عن مناهج الأرض كلها السابقة منها واللاحقة فربى أجيالا متزنة مستقيمة أطلقت عنان طاقاتها في الخير والصلاح .

ظهور الفرق :

غيرأن هذه النظرة الشمولية أخذت تضمحل وتفتر شيئا فشيئا خاصة بعد ظهور فرق لم تحسن فهم أسرار هذا الدين ولم تفقه أصوله وكلياته فاهتمت بالجزئيات فضاعت الأمة وساد الشقاق والنزاع في أوساط المجتمع الذى انقسم الى فئات متباينة متناحرة وانفصمت الروابط التى كانت تشد أفراد الأمة الواحدة وتشمل كل الاخوة ،تلك الروابط التى كانت تتسم بالتسامح والعفو والتصافح ،فتحولت الحياة العامة الى جحيم لا يطاق مع العلم بأن الله تعالى نهى عن ذلك بقوله : (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) سورة الأنفال : الآية 46 .

تفرق علماء الاسلام الى فرق وفئات أشهرها فرقة الفقهاء وفرقة علماء الكلام وفرقة رجال التصوف .

./.

أما الفقهاء فقد ركزوا جهودهم في البحث عن الجزئيات الفقهية فاستمدوها من الأحكام التى استنبطوها والنتائج التى استخلصوها ، فتولد عن ذلك ظهور خلافات بينهم والتى في حد ذاتها ليست بالغريبة لأنها رحمة بالأمة ، وقد أدت الى بروز مذاهب شتى أهمها مذاهب السنة الأربعة فضلا عن الفرق الأخرى كا الجعفرية والاسماعيلية والاباظية وغيرها التى لم تضر الأمة في بداية الأمر لكن انتهت في العصور الموالية الى تعصب مذهبي سبب في اضعاف الأمة الاسلامية .

وأما علماء الكلام فقد اهتموا بالجانب العقلى وأفرغوا كل اجتهاداتهم في الاستدلال على ما ذهبوا اليه من أحكام فبحثوا القرآن آية آية ليستخرجوا منه كل ما من شأنه أن يدعم ماذهبوا اليه وما اعتقدوه اعتقادا جازما وبذلك كانت نظرتهم تفتقر الى الشمولية علما بأن الدين لا يغلب جانبا على جانب آخر بل هو دين توازن بين كل الجوانب .

وأما بالنسبة لرجال التصوف فقد اهتموا بالروحيات والوجدانيات ، فانصرفت فئتهم للعبادة وحفظ الاذكار والأوراد والتحظيم من شأنها ، وتزكية النفس وحبسها عن الملذات ، فكانت النتيجة أن انعزلت عن المجتمع واتجهت نحو العبادة الشكلية ناسية أن الهدف من العبادة هو تقوية الانسان على مواجهة الحياة ومستجداتها ، وبذلك انشغلت عن مهمتها الكبرى المتمثلة في الجهاد والعمل .

وأضحت هذه الفئات الثلاث تدور في دائرة شبه مفرغة بعيدة عن المجتمع وهمومه ومشاكله فألفت الكتب التى كانت نصوصها غامضة ومعقدة ولا يستطيع فهمها الا الخواص بسبب صعوبة أسلوبها وغموضه ، وهذا يبين لنا المنحى

./.

الذي نحاه علماء هذه الفئات الذين لم يكن همهم خدمة المجتمع والرفع من مستواه ،فدب الجهل في الأوساط الشعبية وانتشرت الأمراض على اختلاف أنواعها واستفحل أمر الشعوذة والأباطيل وتفشت روح التعصب بين فئات المجتمع واتخذ أشكالا متنوعة كالتعصب للمذهب أو للجماعة أو للوطنية أو للاقليمية وكانت النتيجة أن شمل هذا الانقسام جميع طبقات المجتمع وأصاب وحدة الأمة الاسلامية في صميمها عندما تحولت الخلافات الفرعية الى تطاحن في المساجد والساحات وتحول الصراع من جدال بالكلام والقلم الى قتال بالسيف ،فأصبح بأس المسلمين بينهم شديد ،وخلق جوا مشحونا بالعداوة والبغضاء أدى في بعض الأحيان الى التنافر والتناحر والتدابر ،والتاريخ الاسلامي سجل لنا كيف كانت تقام أربع صلوات في مسجد واحد لكل مذهب صلاته فالشافعي لا يصلي خلف الحنفي ولا الحنفي وراء الشافعي بل بلغ الأمر بعدم السماح للشافعي أن يتزوج بحنفية وغدا كل فريق يؤلف ويكتب فيما اقتنع وفيما من شأنه أن يكسب به انصارا وأتباعا لتقوية صفه وينتصر على خصومه وراح كل فريق أيضا يستغل ظواهر النصوص الشرعية ليستدل بها ويدعم صحة ما ذهب اليه .

ومما زاد في الطين بلة اقدام طائفة المتكلمين في الخوض في الأمور الغيبية فبحثوا في الصفات الالهية كالوجه واليد والاستواء والنزول ورؤية الله سبحانه وتعالى وقضية خلق القرآن التي عذب من أجلها أئمة وقتل من أجلها مسلمون واعتبروا من خالفهم كافرا فشددوا على الأمة في أمور لا قبل للعقل بها فتارة ينفون الصفات وتارة يثبتونها . ومن الطبيعي أن يتوصلوا الى آراء متضاربة ، وأهم الفرق التي حملت لواء علم الكلام

./.

هو المعتزلة والأشاعرة والماتريدية ونصوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد نهى عن التفكير في ذات الله وأمر بالتفكير في خلق الله .

والجدير بالذكر أن الاسلام في عصور تاريخة الذهبية لم يذكر لنا أن أحدا من علماء الاسلام فصل بين مختلف العلوم ورجح جانبا على جانب ، ولكن في العصور المتأخرة حدث انفصال وانشطار بين هذه العلوم فصار كل عالم يعتد بما عنده متهما الآخرين بالعجز تارة ورميهم بالزندقة والردة والكفر تارة أخرى . وأخذوا يهتمون بالفروع ويعرضون عن الأصول ولا يقبلون الا ما يكون وفق مذهبهم ومنهجهم وأهوائهم ، وبذلك سدوا باب الاجتهاد الشريان الرئيسي للفقه الاسلامي فظهرت العصبية المشؤومة التي فرقت بين الأمصار بل وبين اطراف البلد الواحد الى أحزاب وشيع ، الشيء الذي أدى الى تحجر المتعصبين الى المذاهب وتقوقعهم بسبب اكتفاء الواحد بما أخذه عن امامه دون أن يبحث عن الدليل أو البرهان أو القاعدة الأصولية أو الفقهية التي تحدد له الحكم أو البحث عنها في مذهب آخر . ثم أخذ التعصب لهذه المذاهب يشتد ويزداد حدة يوما بعد يوم وأصبح أتباع المذاهب ينحازون لائمتهم ويلتمسون لهم الحجج لدحض حجج خصومهم ويطلقون عليهم أوصافا ونعوتا مشينة بل ذهبوا الى التطاول على أئمة المذاهب وطفقوا ينتحلون الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وادعوا أنه قال : (سيبعث في أمتي رجل أشد عليها من ابليس اسمه محمد بن ادريس) يريدون بذلك الامام الشافعي رضي الله عنه وأمست كل فرقة تلعن أختها وترميها بالغباوة وعدم الفهم ، فانقسم الناس وانشطر العوام وانشغل العلماء بالتخريج على المذاهب ووضع الحواشي على المتون الفقهية تاركين شرح الرسالة العظمى التي أرادها الله لهذه الأمة .

هي المعتزلة والأشاعرة والماتريدية ،ونسوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد نهى عن التفكير في ذات الله وأمر با التفكير في خلق الله .

والجدير بالذكر أن الاسلام في عصور تاريخة الذهبية لم يذكر لنا أن أحدا من علماء الاسلام فصل بين مختلف العلوم ورجح جانبا على جانب ، ولكن في العصور المتأخرة حدث انفصال وانشطار بين هذه العلوم فصار كل عالم يعتد بما عنده متهما الآخرين با لعجز تارة ورميهم بالزندقة والردة والكفر تارة أخرى . وأخذوا يهتمون بالفروع ويعرضون عن الأصول ولا يقبلون الا ما يكون وفق مذهبهم ومنهجهم وأهواءهم ، وبذلك سدوا باب الاجتهاد الشريان الرئيسي للفقه الاسلامي فظهرت العصبية المشؤومة التى فرقت بين الأمصار بل وبين اطراف البلد الواحد الى أحزاب وشيع ، الشيء الذى أدى الى تحجر المتعصبين الى المذاهب وتقوقعهم بسبب اكتفاء الواحد بما أخذه عن امامه دون أن يبحث عن الدليل أو البرهان أو القاعدة الأصولية أو الفقهية التى تحدد له الحكم أو البحث عنها في مذهب آخر . ثم أخذ التعصب لهذه المذاهب يشتد ويزداد حدة يوما بعد يوم وأصبح أتباع المذاهب ينحازون لائمتهم ويلتمسون لهم الحجج لدحض حجج خصومهم ويطلقون عليهم أوصافا ونعوتا مشينة بل ذهبوا الى التطاول على أئمة المذاهب وطفقوا ينتحلون الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وادعوا أنه قال : (سيبعث في أمتى رجل أشد عليها من ابليس اسمه محمد بن ادريس) يريدون بذلك الامام الشافعي رضى الله عنه وأمست كل فرقة تلعن أختها وترميها بالغباوة وعدم الفهم ، فانقسم الناس وانشطر العوام وانشغل العلماء بالتخريج على المذاهب ووضع الحواشى على المتون الفقهية تاركين شرع الرسالة العظمى التى أرادها الله لهذه الأمة .

جعلت هذه النظرة التجزيئية للإسلام و اعتبار جوانب من جوانبه دون غيرها الأمة الاسلامية تضعف و تصاب بالتفكك و الانحلال و تفرق الشمل فأصبحت كل فرقة تعتقد أن ما ذهبت اليه هو الاسلام الصحيح و ما سواها باطل و دفعت المستشرق جب الى الاعتقاد خطأ أن الاسلام دين الجزئيات لا الكليات و لو توقف أمر آفة هذه الخلافات عند هذا الحد لهان بل استرسل عبر العصور حتى يومنا هذا لعله موجود بأساليب تختلف عن الاساليب السابقة و لكنه أشد بأسا و أشد خطرا على وحدة الأمة الاسلامية و لم تقتصر آفة الخلاف هذه على الطوائف و الهيئات و الشيع بل تعدتها لتشمل مؤسسات و شخصيات ترفع في عصرنا اسم الاسلام و في نفس الوقت تحاربه باثارة الشبهات و الشكوك و تأجيج نار الفتن و الخلافات و عوامل العداوة و البغضاء و الجنسية و العرقية بين المسلمين و تقدم بالتالى الاسلام للآخرين في صورة مشوهة في حين أن الاسلام الذي بلغه لنا النبي الأكرم (ص) هو روح و عقيدة و عبادة و عمل يتناول حياة الانسان جسما و روحا و عملا و قولا و فعلا و سلوكا تختلف عن صورته الصحيحة ، هذا فضلا على انتساب بعض الدعاة في الخارج الى بلدان اسلامية يعملون بتوجيهات قد تكون مصلحة الاسلام والمسلمين فيها ضئيلة وقد تكون جملة وتفصيلا لصالح البلدان الباعثة ،وقد شاهدنا ذلك في أمريكا وفرنسا بالخصوص وما شهدنا الا بما علمنا . غير أنه لاينبغي لنا أن نعمم الحكم على جميع المؤسسات والدعوات سواء المؤيدة أو المناهظة للاسلام ولكن يجب علينا الحذر والتحرى الدقيقين في النظر لأنشطتها ومعرفة هويتها وانتمائها والأوساط الخفية والمكشوفة التى تقف وراءها . وفي نفس الوقت ظهرت فئة من الشباب المندفع فقالت هي الأخرى في الدين وتطاول بعض أفرادها على العلماء وغدت تصدر أحكاما قاسية على الأمة وصلت بها الى حد التكفير فزادت الشقة اتساعا في المجتمعات الاسلامية . والكثير من هؤلاء المتجزئين هم ممن لا علم له بالشريعة ولكن الغرور يدفعهم الى مناقشة

./.

علماء راسخين في العلم بغير حجة ولا برهان ولا علم ولا كتاب منير . وبعضهم لم يحسن حتى التبليغ الامين عن شيخه فتراه يزيد أو ينقص حينا ويتعصب لرأيه أحيانا ضاربا بما سواه عرض الحائط .

واذا أفضنا في الحديث عن روح التعصب التى انتشرت في الأقطار الاسلامية فان الأمانة التاريخية والنزاهة العلمية تملى لنا بأن لانضرب صفحا عن لفيف من العلماء الفطاحل والفقهاء اللوامع الذين جاهدوا في الله حق جهاده وقدموا لأمتهم خدمات جليلة عبر العصور وتحلوا بالعلم النافع الذى دعاله الاسلام وقطع به السلف الصالح أشواطا شاسعة في مختلف العلوم والفنون كالفلك والطب والهندسة والحساب مثل جابر بن حيان والبيروني والخوارزمي وحجة الاسلام ابي حامد الغزالي الذى كان فقيها ناسكا وأصوليا متضلعا ، وتقى الدين أحمد بن تيمية الذى جمع بين الفقه والعبادة والجهاد . ضد التتار والذى يروى عنه أنه قال : ((اذا احتاج المجتمع الاسلامي الى ابرة كان ذلك فرض كفاية وان لم يقم به البعض أصبح فرض عين)) . وكذلك الشأن بالنسبة لابن القيم الجوزية وابن عربي والشاطبي وأضرابهم ممن لايحصى عددهم ، والذين كانوا يظهرون بين الحين والآخر ، حسب ما صح عن الرسول الاكرم صلى الله عليه وسلم الذى قال : (يبعث الله على رأس كل مائة سنة من يجدد أمر هذه الأمة) أوكما قال (ص)

وحتى العصور المتأخرة هي الأخرى لم تخلو من مثل هؤلاء العمالقة فجاءت النفحات الربانية بمنقذين حقيقيين تخص بالذكر محمد بن عبد الوهاب وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي ومحمد رشيد رضا وشكيب ارسلان ومحمد اقبال والطاهر بن عاشور وعبد الحميد بن باديس والشيخ البشير الابراهيمي

./.

وحجة الله الدهلوي ، غير أن عدد هؤلاء المصلحين القليل لم يساعدهم على احتواء واصلاح الأوضاع التي بلغت مبلغا كبيرا من التردى ، وحالت بينهم وبين تحقيق أهدافهم ومطامحهم المثلى التي طالما اجتهدوا للبلوغ اليها

ظهر هؤلاء في وقت اغتر بعض المسلمين فيه بانجازات الغرب المادية فطفقوا يتشدقون مالنا والروح ، علينا باتباع مناهج الغرب ، القوم وصلوا الى التحكم في التكنولوجيا والتصنيع ، فحصل الانفصام وتمزقت الشخصية الاسلامية وضاعت خصائصها وتميعت مقوماتها فانعدم التفاعل مع أحكام الشريعة الاسلامية فتهافت الناس على المادة والشهوات والرغبات وكاد جوهر الانسان الذى هو الروح أن ينطمس فحصل تدهور في الأخلاق وظهر اليأس والقنوط والهلع ، فتولدت القابلية للاستعمار وحسب ما عبر عليه المفكر الاسلامي مالك بن نبي رحمه الله ، وأخذت السموم في ظلمات الانحطاط والاعراض عن الدين وتعاليمه تنفث في قلب المسلم نفثا حتى فقد الثقة في نفسه خاصة وأن أوروبا عرفت في تلك الآونة حركة علمية وصناعية هائلة قذفت في حس المسلم أنه لن يستطيع مظاهاة الغرب في علمه وابداعه وأن كل محاولة مآلها الفشل ، وحينئذ خمدت الطاقات التي طالما بهرت العالم باكتشافاتها وابداعاتها فانطلق المسلمون من فراغ التقليد الغرب ومن انطلق من فراغ جئ الفراغ

فتوقفت حركة الخلق والابداع والابتكار وضعف المجال الفكرى بسبب توقف المسلمين على البحث والسير والاكتشاف وأصاب العقول الجمود والركود وانصرف العلماء وشبه العلماء الى مالا طائل من ورائه وحل الضعف والعوز بالامة التي غدت تحتاج الى غيرها من الأمم التي انطلقت بها حركة التقدم في نفس الزمن الذى أخذ فيه نجم الحضارة الاسلامية في الافول في كافة الميادين وغرس التطور الذى بلغه غيرها من الأمم روح الاحباط واليأس

./.

في النفوس واستعبد وا اللحاق بالركب وركنوا الى الراحة والكسل . وعاش الاسلام يومئذ بين كيد أعدائه وغفلة أبناءه وجهل أتباعه وخوف مثقفيه ، وطفق أبناءه يعتمدون ايديولوجيات أقل ما يقال عنها أنها من وحي صهيوني وماسوني وشيوعي ويهودى ونصراني (ولن ترضى عنك اليهود ولاالنصارى حتى تتبع ملتهم) سورة البقرة الآية : 120 .

ولم يحدث هذا الانحطاط والضعف والتدهور طفرة واحدة ودون مقدمات تسببت فيه والتى تمثلت فيما أصاب المسلمين من انقسام ومادب بينهم من انشقاق جعل بعضهم يزدرى بالبعض الآخر ويقلل من شأنه ، وغدا كل فريق ينظر الى غيره بعين الاحتقار وانقسم المجتمع الاسلامي الى تيارات وعصبيات وأمست لكل فئة منه ثقافتها الخاصة التى تختلف عن ثقافة بقية جلدتها وانفصمت الروابط التى كانت تشد الامة من قبل وبرزت بين المسلمين ايديولوجيات وفلسفات أجنبية في المجتمع الاسلامي بحسب الانظمة التى أخذت بها كل منطقة فساء فهم عدة قضايا أساسية في العقيدة الاسلامية كالاعراض عن الاجتهاد وتعطيل الأخذ بالاسباب وقضية القضاء والقدر والزهد والتواكل وغلو التيار الصوفي الذي حصر العبادة في الشعائر التعبدية المحضة الشيء الذى جعل بعض المفكرين المعاصرين يعتقدون أن من بين عوامل الانحطاط في حياة المسلمين هو الجهل وقلة العلم اللذان يجعلان الانسان لقمة سائغة في يد غيره ، ويرى العلامة أبو الحسن الندوي حول هذه النقطة أن المسلمين انخذلوا أمام غيرهم يوم تركوا العلم بأمور الدنيا وأغلقوا باب الاجتهاد واكتفوا بما عندهم من قديم ورأوا في كل جديد بدعة ويضرب بذلك مثلا بالخلافة العثمانية التى ساست العالم الاسلامي في عهده الأخير فيقول : (فبينما كانت الدول والممالك

./.

استسلمت وغطت في نوم عميق ، هذا وان اعتقد البعض بأن الغزو الاستعماري لبلاد الاسلام تمثل في الاحتلال العسكري والتحكم السياسي والهيمنة الاقتصادية فقط فانهم لم يتفطنوا لجوانب أخرى لتلك السيطرة الشاملة . ومن البديهي أن الاحتلال العسكري شكل المدخل الأول في بسط هيمنة الاستعمار ، ذلك أن الغرب لم يكن باستطاعته النفوذ الى بلدان العالم الاسلامي الامن خلال العنف العسكري الذي تلته السياسة التي حقق بمقتضاها نفس الهيمنة التي تبعتها السيطرة الاقتصادية وأدرك أخيرا بأن ذلك كله غير كاف ومن أجل ذلك عمد الى بسط هيمنته بالتركيز على جزئين هامين : الغزو الثقافي الايديولوجي من جهة والتجزئة من جهة أخرى مدركا بأن ذلك يولد العجز الدائم ويجعل التبعية له أمرا مفروغا منه . لقد قام الغزو بعملية تحطيم الاساسيات الاستقلالية للأمة وفك وحدتها وتشويه هويتها وتثبيط قدرتها على النهوض من أجل القائها في أحضان انماط التبعية الغربية لتصبح الأمة الاسلامية ترتكز عليها وتنطلق من معاييرها وقيمها .

هذا وبعدما رأينا الأسلوب الذي اعتمده الاستعمار بخلق أنواع من العراقيل لخنق نشاط الحياة في البلاد لتعرض لعامل آخر لايقل خطرا وهو العامل المنبعث من باطن الفرد المستعمر الذي أخذ يتقبل تلك الصيغة والسيرة في تلك الحدود المرسومة من ذلك أنه يقبل نعته بالأهلي الذي يتجاوب مع مقاصد الاستعمار من تقليل قيمته من كل ناحية حتى من ناحية اسمه وهو يريد من وراء ذلك الحط من أخلاقه لتشيع الرذيلة بين الأفراد وجعلهم يسرعون الى محاربة الفضيلة . ويرمي الاستعمار من وراء ذلك الى تشتيت المجتمع وتفريق أفراده شيعا وأحزابا ليحل بهم الفشل في الناحية الأدابية

./.

والمعنوية مثلما فشلوا في الناحية الاجتماعية وبذلك تكون العلة مزدوجة . وكلما شعروا بداء العامل الاستعماري من الخارج فانهم يحسون في نفس الوقت بعامل باطني يستجيب للعامل الأول وبالتالي فهم يساهمون من حيث يشعرون أولا يشعرون بالحط من كرامتهم بأنفسهم ،وفي هذا الصدد قال أعداء المصلحين (أخرجوا المستعمر من أنفسكم يخرج من أرضكم) .

ذلك أن الاستعمار لم يستطع التصرف في طاقاتنا الاجتماعية الا بعد أن درس أوضاعنا النفسية دراسة عميقة والحق اننا لم ندرس بعد الاستعمار دراسة علمية كما درسنا هو حتى أصبح يتصرف في كثير من مواقفنا الوطنية والدينية وهدفه منذ البداية هو دعم مكتسباته والاطمئنان بأنها لن تتفلت منه ثانية وبعد أن كانت وسيلته الى ذلك الحرب والمكيدة اكتشف أن هذا الأسلوب الظاهر لا يكفي ولا يمكن له بحال من الاحوال أن يقهر المسلمين به وحده حينما صحح منهجه والتجأ الى استراتيجية الدهاء والخبث وسلك طريقة اخرى هي اجتثاث الاسلام من أصله فبدأ بارسال المبشرين والمستشرقين وكان في طليعة الرعيل الأول ريمون لول . غير أنه لابد لكل فكرة من بداية بسيطة . كذلك بدأت حملات التبشير والاستشراق ثم تطورت وتغلغلت في جسد المجتمع الاسلامي غير مثيرة للانتباه في بداية الأمر .

ان هذه الحرب الفكرية كثيرا ما تلبس ثوب البراءة والطهرة والغيرة على رسالة المسيح ولكنها في الحقيقة مسوح كاذبة تخلع فور رجوع أصحابها الى بلادهم ليستعيضوا عنها بلباس لا ديني ما جن ،والشاهد على ذلك أن قساوسة الغرب وكهنته ليست لهم قيمة كبيرة ولاأهمية عظيمة وليس لهم صوت يسمع خارج الكنائس ،فاذا ما خرجوا من بلدانهم متوجهين شطر العالم الاسلامي خرجت

./.

سلطات بلادهم تودعهم وتبارك لهم جهودهم وتساعدهم بكل الوسائل المادية والمعنوية ،فما السر في ذلك يا ترى ،أهو اجلال لهم لدين المسيح وقد اتخذوه من قبل ظهر يا أم هو غيرذلك ؟

لقد سخرت بالفعل الادارة الاستعمارية جيشين كبيرين من المستشرقين والمبشرين منذ السنوات الأولى لغزو الاقطار الاسلامية وبذلت لهم الأموال ووفرت لهم كل الوسائل وفتحت لهم المدارس والجامعات ومراكز البحث وأنشأت لهم المجلات والدوريات رامية بذلك انحراف العقول وتشويهها وبلبلة الافكار وتشويشها فنظمت الحملات الدعائية المغرضة واستطاعت بالتالى أن تفكك الأجهزة التثقيفية التقليدية وطفقت تصوغها في قالب يحمل طابعا استعماريا تخريبيا جديدا وتحولت الثقافات العربية الاسلامية الخالصة الى ثقافات تتسم بالخلط والعجمة والرطانة بسبب تسرب الملايين المملينة من الألفاظ والعبارات الدخيلة التى لم يحسن المسلمون افراغها في قالب عربي وجعلها تثرى لغتهم مثلما أثرت قديما مصطلحاتها اللغات الغربية ، هذا فضلا عن تسرب الأفكار والفلسفات والتيارات الايديولوجية الغربية المخربة .

والجدير بالذكر أن هذا الغزو تم عن طريق السلب والمسخ والفسخ والافتقار والتشكيك والاستبدال الثقافي والفكرى والعقائدى العربي الاسلامي بالثقافة والحضارة الغربيتين فضلا عن تطبيق سياسة الاندماج عن طريق التجنيس ،وكل ذلك كان يرمى الى تفكيك الأجهزة السياسية والادارية والتعليمية واحداث الخلل في النظم الاجتماعية والقضاء على الثقافات الأصلية . ولاغرو من ذلك ،اذ بدأ الهمس حول الخطر الاسلامي منذ صدور

./.

كتاب يحمل عنوان (العالم الاسلامي اليوم) والذى هو عبارة عن تقارير وبحوث كتبها المبشرون وجمعها صموئيل زويمر رئيس ارساليات التبشير في البحرين ونشرها في أوروبا . ومن جملة ماجاء في هذه التقارير : (أنه لم يسبق وجود عقيدة مبنية على التوحيد أعظم من عقيدة الدين الاسلامي الذى اقتحم قارتى آسيا وافريقيا الواسعتين وبث في مئات الملايين من البشر عقائده وتقاليده وأحكم عروة ارتباطهم باللغة العربية فأصبحوا كسلسلة جبال تناطح السحاب . . . ان الكنيسة المسيحية ارتكبت خطأ كبيرا بتركها المسلمين وشأنهم اذ ظهر لها أن أهمية الاسلام في الدرجة الثانية بالنسبة الى ثمان مائة مليون اشتغلت بهم ، رأت هذا وهي لم تكن تعرف عظمة الاسلام وحقيقة قوته وسرعة انتشاره الا منذ ثلاثين سنة فقط) . وغير هذا الهمس تسلل الكثير الى أقطار المسلمين عن طريق كتبهم ومجلاتهم وجرائدهم ، أما السبل التى اعتمدوها من أجل خنق الاسلام فهي متنوعة والهدف واحد ومن ضمنها على سبيل المثال لاالحصر التعليم والتطبيب والتمريض والاعلام واشعال الفتن والحروب وتأجيج الدعوات الاقليمية الى آخره .

غير أنهم أولوا التعليم عناية خاصة لأنهم بسيطرتهم عليه ينتج لهم جيلا يتبنى فكرهم عن علم وجهل وخير دليل على ذلك ماقاله القسيس زويمر في كتابه (مهد الاسلام) : ((لقد استطعت أن أجمع التلاميذ المسلمين مرة وأضع بين أيديهم كرة تمثل الكرة الأرضية ، ثم سلطت عليها ضوءا قويا وأقنعتهم بذلك أن الأمر بصيام شهر رمضان ليس آتيا من عند الله لأنه يتعذر اداء هذه الفريضة في بعض البلاد)) .

ولم يتعلق هذا الأمر بالمبشرين الفرنسيين فقط من أمثال زويمر بل يعمل بريطانيا كذلك التى أصرت على مقاومة التربية الاسلامية في الهند بكل صرامة

لدرجة أن أحد المؤلفين الانجليز كتب مقالا في صحيفة : (الدايلى بتايغراف) بعدد 8 فبراير 1888م ، تحت عنوان (الاسلام والمدارس المحمدية) : لم فيه طريقة بلاده المهستيرية في حرب التربية الاسلامية في مدارس الهند ، كما عملت أول ما وصلت الى مصر على انتزاع سلطة التعليم من قبضة الأزهر باعتباره البركان الوحيد الذى يلقى في وجهها الشواظ . أما عن السياسة الفرنسية في هذا المضمار في الجزائر وغير الجزائر فحدث ولاحرج .

لقد شجع الغزاة ببغيةالوصول الى أهدافهم وتحقيق مآربهم تعليم لغاتهم واجتهدوا في انشاء جيل جديد من الأهالى أو كلوا اليه فيما بعد الدفاع عن لغاتهم بل والذود على حضاراتهم .

وفوق هذا وذاك فتح الغزاة أبواب التجنيس للعناصر المستنيرة من الاهالى وأوعزوا لبعض علماء الدين أن يثوروا على أصحاب الطرق الصوفية مدعين بث أفكار النهضة الحديثة التى بزغت شمسها في الشرق .

وبتطبيق سياسة " فرق تسد " كان الغزاة لايرمون بفعلهم هذا ادخال أفكار النهضة الى المجتمعات الاسلامية المغلوبة على أمرها وانما زرع الشقاق والعداوة بين الطوائف المتنازعة من صوفية واصلاحية .

وأمام هذا السيل العارم والضغط الهائل كان لابد أن تتحرك أوساط مختلفة ، أهمها الاوساط القائلة بضرورة الاستمساك بالعقيدة والأفكار والاخلاق والنمط الحضارى ونهج الحياة للاقتصاد المستقل واتخاذ موقف قوى ضد محاولات التغريب ، وقد عارضت هذه الفئة الأولى ثانية انبهرت بقوت الغرب وحضارته فاعتبرت أن أسباب التأخر والتحجر والنكبة تعود الى مكونات المجتمعات الاسلامية وراحت تنعتها بالتخلف والتأخر معتقدة بأن الخلاص لا يكون الا باتباع الغرب في كل شيء ووجدت نفسها بحيث تشعر أولا تشعر في حالة ازدواج

./.

الشخصية وهي تصارع الخيار بين الانشداد الى الداخل لكسبه وبين انشدادها الى الخارج لتصبح تابعة للخارج ضد الداخل مباشرة .

ومن جهة أخرى وبعد غزو الاوطان عسكريا اتجهت السلطات المعتدية الى ما كانت تحب تسميته بالغزو من الداخل، ذلك ما جاء في تصريح لأحد وزراء التربية الفرنسيين في نهاية القرن الماضي : (كان الغزوالاول للجزائر بقوة السلاح وانتهى سنة 1871م ، ويتمثل الغزوا الثاني في حمل الاهالي على قبول عدالتنا وآرائنا وسوف يتحقق الغزو الثالث عن طريق المدرسة وتغيير العقل الجزائرى) .

وفعلا عمدت السلطات الاحتلالية في جميع أقطار العالم الاسلامي الى تكثيف عملية افتتاح مدارسها وتجشيع الحملات الارسالية التبشيرية والاستشراقية بحيث تعرض المستشرق زويمر الى ظاهرة السلب والاستبدال في النظم المدرسية الدخيلة بقوله واعظا رجال السلك التعليمي : (ينبغي أن لا تنسوا هدف التعليم الذى تقدموه لهذه البلدان ،فهو ليس تكوين عقول كعقول فولتير وروسو ومونتسكيو ولكن استبدال لغات بلغات وديانات بديانات وحضارات بحضارات)، وبالفعل لقد كان مضمون البرامج يتحاشى عن قصد التعرض الى كل ما يتعرض بتاريخ الحضارة الاسلامية في البلدان المغلوبة على أمرها وراح مؤرخو الاستعمار يكرسون جهودهم على تاريخها قبل الفتح الاسلامي أي الاهتمام بالنعرات القبلية والسلالات العرقية كالفرعونية في مصر والاشورية في العراق والطائفية في لبنان والبربرية في الجزائر الى غير ذلك . هذا بالاضافة الى التشكيك في القرآن الكريم ونبوة الرسول الاكرم والطعن في عرضه وتضخيم الخلافات التى حصلت بين الصحابة والتابعين ،والملاحظ أن العالم كله بما فيه اليهودية

والنصرانية والماسونية تآمر على المسلمين بعد ما أيقن أن لا أمان له ما دام الهلال مرفوعا ومادامت راية الاسلام عالية خفاقة ،فاتحدت هذه الحركات وجمعت قواها وسخرت معاولها لطمس الشريعة الاسلامية وتحطيم خلافتها ذلك ما يظهر جليا في المعاهدات والاتفاقيات التي تمت بين دول الغرب كمعاهدة سيكس بيكو ولوائح مؤتمر فينا ووعد بلفور وغيرها بغية الوصول لتلك الغاية المشؤومة ،ومما يؤسف له ويحز في القلب أن المسلمين قابلوا هذا التآمر وهذا التحالف بمزيد من النزاعات والانشقاقات الداخلية التي صدعت صفوفهم وقوضت صرح كيانهم وانهكت قواهم .

وترتب عن الاتصال الآنف الذكر نتيجتان هامتان انبثقتا عن الصورة المشوهة التي آلى اليها المجتمع الاسلامي في عصر الانحطاط بالنسبة الى الذين اتخذوها بديلا عن الاسلام الصحيح ظانين أنها الاسلام حقا وانتهى الأمر بأولئك الذين آمنوا بهذه الصورة المشوهة للاسلام الى أن يكونوا ذلك الجيل المتخلف فكريا واقتصاديا واجتماعيا وايديولوجيا ونفروا من الاسلام حين ظنوا أنه هو السبب في الضعف والجمود والتخلف واقدامهم على اعتناق عقائد أجنبية اتخذوها أساسا للنهوض ذلك أن الثقافة الأوروبية التي تلقوها قدمت لهم انماطا ومقاييس حضارية معارضة لما عليه المجتمع الاسلامي وهذا التحارب بين الثقافتين هو من أكبر الاسباب لاعراض الأجيال الجديدة عن الاسلام .

وتم ذلك على أربع مراحل :

— مرحلة الذهول والانبهار والشعور بالنقص والدهشة والاعجاب .

— ثم مرحلة النقل والتقليد والاقتباس .

— تلتها مرحلة محاولة التوفيق بين الأفكار الغربية والقيم الاسلامية بكل ما تولد عن ذلك من صراع .

./.

- وفي الأخير مرحلة الذاتية بالنسبة للاتجاه الاسلامي الأصيل والتى تقابل مرحلة الانسلاخ النهائي منه والاتجاه الى الغرب والاندماج كليا في أحد التيارات الفكر الغربي التى سيأتي ذكرها =

ان عامل الغزو الفكرى أو الاستعمار الثقافي هو الذى دفع المسلمين الى اعتماد أسلوب تفكير ضرره اكثر من نفعه وكان من أشد الوسائل المستعملة في القضاء على عقيدة المسلمين وتغتيت أواصل رابطتهم ، واتخذ هذا الغزو لتحقيق أغراضه الوخيمة وسائل وتيارات ظهرت على الساحة الاسلامية وتولدت عنها مناهج في الاقتصاد والسياسة والثقافة وجوانب أخرى كان الهدف منها تفريغ الاسلام كنظام حياة كامل من محتواه ونشر الانحلال الخلقى وترسيخ العلمانية التى تفصل الدين عن الدولة .

لقد تم جزء كبير من ذلك أولا عن طريق شباب مسلم تعلم في مدارس وجامعات الغرب تعليما مريبا ثم أنيطت لبعض أفراده المسؤوليات الخطيرة في أجهزة الحكم بعد رجوعهم الى بلدانهم ، وثم ثانيا عن طريق بعثات علمية غربية لايقصد من ورائها نشر العلم الصحيح أو الثقافة البريئة وانما يقصد منها اثارة النزاعات العرقية والنعرات الجهوية وارساء سياسة التجهيل بالشكوك والشبهات حول العقيدة وثم ثالثا عن طريق الأنظمة الايديولوجية المعروفة في عالمنا المعاصر كالماركسية الشيوعية والرأسمالية وغيرها فضلا عن طباعة الكتب والروايات التى تخاطب العواطف وتحرك الغرائز وتثير الفتن والمجلات والصحف والتلفزة والسينما والزواج بالاجنبيات والمجيء بالنساء الجميلات الفاتنات المغريات لاثارة غرائز الشباب المسلم وجعله ينحرف عن طريق الجادة والصواب ، وثم رابعا عن طريق الدراسات الاستشراقية لتاريخ الاسلام ، الى جانب غزو المسلمين فلسفيا عندما طرح في أوساطهم فكرة التطور الداروني وأفكار

./.

وسارتر
دوركايم وفرويد وغيرهم ممن تدرس أفكارهم في معاهدنا وجامعاتنا ففترت عقيدة الاسلام في قلوب أتباعه وحلت محلها الافكار العلمانية .

وتنحصر التأثيرات الغربية في المجتمعات الاسلامية المعاصرة في التيارات التاليـــة :

1ـ التيار الديمقراطي الوطني : نشأ هذا النظام في أوروبا وأول من نادى به فرنسا وانجلترا وكان هدفه الجمع بين أفراد الشعب الواحد تحت نظام واحد باسم الوطنية ، وهي رابطة تجمع أفراد الشعب الواحد بعضهم ببعض بحكم انتمائهم الى وطن واحد ، والوطنية اطار تتفاعل فيه عقول الأفراد ومصالحهم ومنافعهم المختلفة وجميع ضروب نشاطاتهم وهي تقوم أساسا على الفرد في مجال التفكير والعمل والسلوك فنشأ في نطاقها المذهب العقلي في التفكير والمذهب الفردي الحر في الاقتصاد الرأسمالي ، كما نشأت الاباحية الأخلاقيـــة الحرة وتفشت العلمانية التي انفصل بمقتضاها الدين عن الدولة ، وبعد حين تبين أن اعتماد الحرية في المجال الأخلاقي أدى الى الفوضى والاباحيـــة والانحلال . انتقل هذا التيار الى المجتمعات الاسلامية عن طريق الثقافـــة الأوروبية التي تسربت الى عقول الطبقة المثقفة وبعض أفراد الطبقة الحاكمـــة وعن طريق البعثات الطلابية التي أصبحت تنادي بتطبيقه في بلدانهم ، وكان الهدف من تطبيق هذا النظام هو تفكيك الوحدة الاسلامية وحصر المسلمين في تكتلات وطنية بحيث يهتم كل وطن بشؤونه الخاصة ولا يهمه شأن الآخـــرين فأقصى الاسلام وعزل عن توجيه الحياة الفكرية والثقافية والسياسية للأمـــة وأفرغ من جوهره وماهيته .

2ـ التيار القومي : تطورت الفكرة الوطنية وانتقلت الى العرقية والجنسيـــة ثم الى القومية وقد حصل ذلك بدافع التنافس بين الشعوب الأوروبية وتقـــوى

./.

هذا الشعور بفضل الاحتكار بينها في الحرب والسلم ،وفي مقدمة الشعوب التى نادت بـ القومية الشعب الألماني وقد ظهر ذلك بوضوح في تصرفاته السياسية من عهد بسمارك الى عهد هتلر ،وقد عبر الفيلسوف فخته عن هذا الشعور بقوة ،وغدت القومية مظهرا للشعور بالتفوق والاستعلاء ،ويتلخص مبدأ الفلسفة القومية في اعتبار الأمة هي الأساس وليس الفرد وباتخاذها غاية للوجود فالخلود للامة وما الفرد الا خادما لها .

والشعور بالانتماء الى القوم شعور فطرى حيث كان للاسلام الفضل الكبير في تكوينه واقامة حضارة على أسسه ،ذلك أن الاسلام لايدعو الى ازالة القوميات بل يدعو الى التعارف بينها والالتفاف حول مبدأ المساواة الذى يسمو فوقها جميعا ويجمع بينها ،بهذه الطريقة يتم التنسيق بينها دون ازالتها، فالرب سبحانه وتعالى خلق البشر وجعلهم شعوبا وقبائل، ومن آياته اختلاف الألسن الذى هو في حد ذاته مظهر من مظاهر القوميات ولكن الجميع يشترك في مدلول عام ينطبق عليهم ،عبر عنه القرآن بلفظى (يا أيها الناس) و(يا أيها الانسان) وجعل الخطاب يدور حوله وموجها اليه ،قال تعالى :

(يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم) سورة الحجرات : الآية 13 . ونص هذه الآية صريح بحيث يعارض اتخاذ القومية غاية نهائية ورابطة عليا ،فما بالنا نحن اتخاذها عقيدة .

كيف تم هذا التأثير وهذا التأثر يا ترى ؟

تم في بداية الأمر عن طريق اتصال الخلافة العثمانية في آخر عهدها بالألمان في مجالى الثقافة والسياسة ودرس في المانيا طلاب أتراك وعرب وانتقلت الثقافة الألمانية الى المجتمع الاسلامي عن هذا الطريق ،فبرزت الحركة القومية

./.

التركية ثم حركة تركيا الفتاة والاتحاد والترقي منسلخين تدريجيا عن التعاليم الاسلامية وانتهى الأمر الى الغاء الخلافة واقصاء اللغة العربية ومجافاة العرب ومحاولة تتريك العناصر غير التركية ، ثم آلت زعامة هذه الحركة فيما بعد لمصطفى كمال أتاتورك .

ان فطنة الشعوب التي تؤلف الخلافة العثمانية أيقظ بسبب اتصالها بالحضارة الغربية فيها وعيا أشعرها بما في هذا الحكم من تأخر وظلم واقترن هذا الوعي بظهور الشعور القومي عند الأتراك والرغبة في الاستعلاء فحدث بينها تنافس أشعر كل فريق منها بذاتيته القومية وأيقظ فيه روح العصبية وامتزج هذا الشعور بمطالبة رفع المظالم والمشاركة الشعبية في الحكم والمطالبة بالحكم الذاتي والانعتاق . فاغتنمت الدول الأوروبية المستعمرة الفرصة لاضعاف الرابطة الاسلامية بين هذه الشعوب وتفتيتها نهائيا وذلك ما حدث وقد ثبت تاريخيا أن فرنسا وانجلترا خصوصا دفعتا فكرة القوميات والقومية العربية منها دفعا قويا .

هذا وقد فتحت أوروبا أبواب محافلها للماسونية لعقد اجتماعات تهدف الى تقوية الشعور القومي لمناهضة الشعور الاسلامي واعتقد بعض العرب غير المسلمين أن هذا هو الطريق لازالة الوحشة والتنافر والعصبية بين أبناء العروبة على اختلاف أديانهم دون أن يتفطنوا للخطر الذي كان يهدد القاعدة الروحية والخلقية التي يقوم عليها بناء مجتمعهم ، ومهمة هذا التيار أصلا هي تفريغ القضية السياسية من المحتوى الاسلامي واحلال فلسفة أخرى محله وابدال رابطة الأخوة الاسلامية برابطة أخرى بغية عزل الشعوب الاسلامية عن بعضها عزلا نهائيا بحيث تكون صلة بعضها ببعض كصلتها بأي شعب من

./.

الشعوب الأخرى . وبعد أن كان كل مواطن عضوا في دولة اسلامية كبيرة لها أكثر من ألف سنة من التراث والتاريخ وجد الناس أنفسهم مواطنين لسلسلة من الدول التابعة والوحدات السياسية المفتعلة التي تحاول أن تجد جذورا لها في ضمير المجتمع وكسب ولائه .

وقد اصطدم هذا التيار بمعارضة شديدة ووجد مقاومة عنيفة من طرف الذين يغارون على وحدة أمتهم الاسلامية ومن بين هؤلاء الشاعر الالباني الكبير محمد عاكف لماثار قومه الالبان سنة 1912م ،ضد الخلافة العثمانية واعظالهم وزاجرا بل ومحذرا أياهم في قوله الخالد : (ان مملكتكم هي الاسلام..! فما هي اذن هذه القومية القبلية ، هل العرب أفضل من السركس والاكراد أم الفرس أفضل من الصينيين ،بماذا تفضلونهم ،ماذا دهاكم ،هل تقسمون الاسلام الى أجزاء متعددة ،لقد سفه الرسول الاكرم (ص) نفسه العصبية القبلية ،وليس باستطاعة الترك العيش بدون العرب ومن يقول بغير هذا فهو مجنون ،والترك بالنسبة للعرب عينهم اليمنى وساعدهم الأيمن ،فلتكن ألبانيا لكم انذارا ،ما هذه السياسة المتخبطة وما هو هذا الهدف الشرير، اسمعوها مني انا الالباني لا أقول أكثر من وا أسفاه على بلادي المبتلاة) . والفاحص الى بشاعة ما فعلته يد الغرب في تقويض دولة الخلافة وتمزيق وحدة المسلمين يستطيع أن يقوم بتقييم الدولة العثمانية تقييما منصفا لا يستند على تلك الدعاوي التي بثها سياسو الغرب ومفكروه والتي مفادها أن الخلافة العثمانية متخلفة وعلى رأسها سلاطين مستبدين .

3- التيار الماركسي الشيوعي : هو تيار فكري وسياسي واجتماعي وعقائدي في آن واحد كانت تدعمه الجماهير الشعبية في بداية أمره وتقوده فئة قليلة مثقفة ،وليس من باب الصدفة أن يكون تاريخ مقررات اليهود

./.

السرية في بروتوكولات حكماء صهيون في حركتهم العالمية التى كانت تدار في أوروبا لاثارة الجماهير الشعبية على حكامها بحجة الظلم والفساد متزامنا تماما بظهور كارل ماركس اليهودى الذى تدعو فكرته جماهير العمال والصعاليك وغير المالكين الى الانقضاض على أنظمة الحكم والى ثورة العامة على الخاصة من مفكرين ونابغين .

لقد كان سبب تسلل هذا التيار الى الشعوب الاسلامية وتأثيره فيها الفراغ الذى أحدثه التياران الوطني والقومي في المجتمع الاسلامي بعد عملية الاقصاء والتفريغ ، يلى ذلك مهارة الشيوعية ودهاءها في استغلال نفور الشعوب الاسلامية تذمرها من دول الغرب المستعمرة ومذاهبها ورغبتها في محاربتها ، ثم في مهارتها في استغلال بعض النقائص والمفاسد والمظالم في المجتمعات الاسلامية وتم ذلك بفضل مهارة الدعاية المحكمة التى استطاعت أن تخفي حقائق ووقائع هذا التيار وأن تنشر كثيرا من المغالطات ، وكان الهدف فك أرتباط الشعوب الاسلامية بل الأقطار العربية نفسها بعضها ببعض وفك الرابطة الاسلامية ذاتها . كل ذلك أدى الى تقسيم وتجزئة العالم الاسلامي وتشتيته هذا ولئن كانت لنا نتيجة حتمية نستنتجها من كل ما سبق من نزعات داخلية بجميع أنواعها وانماطها ومن غزو خارجي بكل أشكاله ، فما منه هي تجزئة العالم الاسلامي الى دول ودويلات بل الى طوائف وأقليات . وبهذا الصدد يقدر فريق من الباحثين عدد الدول الاسلامية بسبعة وخمسين دولة ، ويذهب فريق آخر الى ذكر خمسين دولة ، سبعة وعشرون منها في افريقيا واثنين وعشرون في آسيا وواحدة في أوروبا ، في حين جاء في عدد لمجلة التايمز بأن عدد الدول الاسلامية سبعة وثلاثين دولة ، منها عشرين في آسيا وسبعة عشر في افريقيا وواحدة في أوروبا . ولئن وقع هذا الاختلاف الصارخ في عدد الدول فما بال

./.

الاقليات المسلمة عبر القارات ،ويرجع عدم التقدير الحقيقي لعدد المسلمين في العالم لعدة أسباب أهمها : رفض معظم الدول بالتصريح الصحيح لاحصاء عدد سكانها من المسلمين مدعية أن ذلك يؤدي الى النزاعات الطائفية في حين يرجع السبب الرئيسي الى خوف تلك الدول من اطلاع المسلمين على أعدادهم الحقيقية وما يترتب عن ذلك من مطالب تقرير المصير والانعتاق ثم ان المسلمين ينتمون الى الدول النامية التى لاتملك وسائل الاحصاء التى تضبط عدد الولادات والوفيات والزواج والطلاق والنزوح وما الى ذلك، بالاضافة الى عدم الجهر بالاسلام خاصة في الدول الشيوعية خوفا من الاضطهاد والمنع من المناصب العليا ،وبالتالى الاختلاف في تحديد مفهوم الدولة الاسلامية : هل هي التى يزيد عدد المسلمين فيها عن 50٪ . أم هي التى تكون فيها نسبة المسلمين أكبر من النسب الأخرى للديانات الغير اسلامية ،وهذا عامل من أهم العوامل كلها .

ومما لا شك فيه أن الاحصاءات التى أجريت كانت من طرف الحملات التنصيرية المغرضة التى لاتحطينا الا عداد الحقيقة لانها تصدر الا حصاءات حسب مايخدم مصالح الغرب . أما بالنسبة للاقليات عبر العالم فنحن نجد في أوروبا كلها سوى دولة واحدة مسلمة وهي ألبانيا وعدد المسلمين فيها يقدر بما يزيد عن مليون مسلم أما العدد الباقى في أوروبا فيصل الى خمسة عشر مليون من بينهم خمسة ملايين في يوغسلافيا وحدها .

لقد عوملت هذه الأقليات المسلمة في أوروبا بمعاملات تعسفية اضطرت بعضهم الى تغيير أسماءهم وصوغها حسب ما يلاءم أسماء ذلك البلد ، كبلغاريا مثلا حيث صار محمد محمدوف وأحمد أحمدوف ورشيد رشيدوف ، كما منعوا من أداء الشعائر الدينية شأنهم في ذلك شأن الأقليات المسلمة

في تايلندا والفلبين والجمهوريات الاسلامية في روسيا ومسلمي الهند إثيوبيا وغيرها ،وقد بذلت أوروبا قصارى جهدها لتتصير المسلمين في هذه القارة بحيث سجل أحد المستشرقين بأن الله بعث لنا العشرة ملايين من المسلمين كهدية ،يقصد (تنصيرها وتضليلها) . أما عدد المسلمين في الأمريكيتين فيصل الى حوالى أربعة ملايين نسمة منها ثلاثة ملايين في أمريكا الشمالية أغلبيتهم من الزنوج والبقية في أمريكا الوسطى والجنوبية ،ولعل أغلب المشاكل التى تعترض الأقليات المسلمة هناك هو اتساع رقعة الولايات المتحدة بالاضافة الى الخلافات والنزاعات الطائفية التى حملتها تلك المجموعات من أوطانها الى أمريكا ، وهذه الأقليات رغم جمعيات الطلبة من مهندسين وأطباء مسلمين هناك هي في حاجة أكيدة الى دعم الدول الاسلامية

أما استراليا فقد وصل الاسلام اليها وجعل أحد المستشرقين يسجل بأن الآذان ارتفع في استراليا قبل أن تدق أجراس الكنائس ،ويصل عدد الجمعيات الاسلامية هنالك الى خمس وخمسين جمعية ولا شك أن استراليا في حاجة الى هجرة المسلمين اليها لنشر الرسالة المحمدية شأنها في ذلك شأن افريقيا ومناطق أخرى من العالم التى لاتنتظر سوى الدعاة لاعتناق الاسلام

ولابد للدول الاسلامية من دعم جميع الأقليات المسلمة ماديا وسياسيا وتتخذ اجراءات فعالة تجاه الدول التى تحويها والتى تقوم بأعمال تعسفية تجاهها ولا شك أن الدول الاسلامية من الوسائل ما يجعلها قادرة على تأسيس جمعيات تكون صلاحياتها احصاء عدد الأقليات المسلمة في انحاء العالم لتقييم ما تحتاج اليه خصوصا في حقلي الدعوة والاعلام .

وخلاصة القول، في هذا المجال أنه من الجميل أن نشخص الداء ولكن الأجمل أن نصف العلاج ،فنحن لا ندعي تقديم علاج فعال ولكن حسبنا اقتراح بعض الحلول، نعتقد أنها جد مفيدة لمن كان له قلب أو ألق السمع وهو شهيد .

ان العقيدة بكل ما في هذه العبارة من معنى أصبحت لها خطورتها وأهميتها وبرزت اليوم بروزا قويا وأمست رابطتها في المجتمعات أقوى رابطة بين الافراد بدليل أن بعض القوميات انقسمت بسبب الاختلاف العقيدى ومن ذلك نستنتج أن رابطة العقيدة أشد وأقوى من رابطة القومية ودليل ذلك انشطار ألمانيا وكوريا وشبه القارة الهندية ،فالأولى انشطرت الى اشتراكية وليبرالية والثانية الى شمالية وجنوبية والثالثة الى هند وباكستان ولئن كان هذا شأن العقائد الوضعية فمن باب أولى ان يكون شأن عقيدة الاسلام الصحيحة أشد لأنها انبثقت من دين العزة والكرامة والمحبة والاخاء ، دين عمل ويعمل على جمع الشمل وربط الأفراد والجماعات ،ويعمل على تقوية أواصر الاخوة والمحبة ،دين قضى على التفرقة وعواملها وجعل المسلم لا يشعر بالفرقة والغربة حيث ما كان وأينما وجد فهو أخ مسلم من أية أرض ومن أي قوم هو ،كما قال جل شأنه : (واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا ،وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها ...) سورة آل عمران: الآية .

عقيدة انبثقت من دين قضى على العصبية القبلية والعرقية وعلى الجهل والأفكار السخيفة الساذجة ،دين كهذا احرى بأن ينهض بهذه الأمة الى المجد ويسير في سبيل العز لأن ناقوس الزمن قد دق مشيرا بأن صوت هذه الحضارة قد ارتفع ثانية خاصة وأن هناك صحوة يقودها حفدة صحابة رسول الله (ص) تستمد قوتها من الرسالة المحمدية وتريد أن تعيد الأمة

./.

الى أصالتها مستجيبة بذلك للضرورة الشرعية والبشرية تطبيقا لقـــــوله تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) سورة آل عمران : الآية 103 .

وفي استطاعة أصحاب هذه الصحوة أن يهبوا بهذه الأمـة الى المجـد ويسيروا بها في سبيل العز ويجعلونها تتبوا مكانتها الأصلية في القدوة والريادة والقيادة مزودين لها بعوامل القوة من علم وعمل وتقوى ،ومادامت ثقة هذه الأمة بنفسها شديدة وربها أشد فبمقدورها أن تجعل النصر حليفها شريطـــة أن تركز صحوتها على العودة الكاملة لمناهج النبوة وسيرة الصحابة والتابعين وما كانوا عليه من عقيدة ومكارم أخلاق وهذا الرجوع الى الأصل لابد له من عدة قوية تشمل العلم والعمل والبصيرة النيرة والزاد الكافي ، روحه الحب والاخوة والترابط والهمم العالية . وينبغي على الأمة الاسلامية أن لاتوقفها أخطاؤها عن السير الحثيث نحو الحضارة الأصلية خشية السخرية أو الكوارث فان قوانين الحياة تدعوها الى النهضة من كبوتها والسير قدما الى العلى ومن شأن مقوماتها ومركباتها ازالة التناقضات والمفارقات المنتشرة في أوساطها بتخطيط ثقافة شاملةيتحملها الغني والفقير والعالم والجاهل والحاكـــم والمحكوم حتى يتم الاستقرارفي الأنفس والانسجام في المجتمع يجعلـــه يستوى على توازن صحيح جديد .

والسؤال المطروح هو : كيف تقرر الأمـة الاسلامية هويتها ؟ ذلك عندما يقرر المسلمون هويتهم التي ينتسبون اليها بتقرر انتسابهم الى أمتهم بل بتقرر هل يملكون أنفسهم أم لا ؟ وهل يملكون قراراتهم المستقبلة أم لا ؟لأنهم عندئذ يمتلكون معيارا قويما بالنسبة لعلاقتهم بالخارج ،وهل هم يحملـــون رسالة الى الخارج أم هم في موقع المتلقي لرسالة الخارج ،ثم ما هي رسالتهم

./.

الى العالم وماهي رسالته اليهم ،لأن الخيار هنالاينبع من استسلام أوانحياز أعمى للتراث والتاريخ والحضارة وانما ينبع من فهم عميق وقناعة وتمحيص، ولعل من حسن طالع هذه الأمة أن يتطابق تراثها وتاريخها وحضارتها مع خيارها الأصل، وهو الاسلام : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا) سورة المائدة : الآية .

ومن أجل تحقيق هذا الهدف المنشود ينبغي على أمة الاسلام أن تهتم بالتربية الاسلامية واعداد الدعاة واصدار الكتب والمجلات وجعل وسائل الاعلام المسموعة والمرئية في خدمة دينها وأن تعتني بالمرأة وترقيتها وتعليم اللغة العربية وتدعيمها وفتح مراكز اسلامية ونوادى في كل بقاع المعمورة وادخال العلوم الاسلامية خاصة المعاملات في الحياة اليومية واعلان الجهاد على الظلم والفساد وتطبيق الشريعة الاسلامية ونبذ كل الايديولوجيات المناهضة لدينها بمراقبة الاعلام ووضعه تحت المراقبة .

ومن هذا المنطلق فنحن لانفشي سرا اذا سجلنا بأن الأمة الاسلامية تجد نفسها أمام اختيار واحد وتحديات شتى وفي هذا المضمار ينبغي بادئ ذي بدء أن لا نخلط بين الاسلام وواقع المسلمين ، ذلك أن التخلف الذى يعانيه المجتمع الاسلامي ليس نتيجة تمسك المسلمين بدينهم ولكن (عقوبة مستحقة من الاسلام على المسلمين لتخليهم عنه لا لتمسكهم به) حسب رأى مالك بن نبي رحمه الله .

./.

فعلا فكلما كان المسلمون أكثر فهما لدينهم كانت شوكتهم أقوى وعودهم أصلب وصفهم أقدر على مواجهة التحديات المتشابكة الكثيرة كالتحدي الفكري والثقافي خصوصا الماركسي والشيوعي والليبرالي الرأسمالي بكل ما يحملانه من قيم في مجالات الدين والأخلاق والاقتصاد والسياسة والاجتماع ، فضلا عن الفكر الماسوني العراعي الى ابادة الأديان والفكر الصهيوني باشاعة التشكيك في العقائد والبلبلة في الأفكار والمتمثل فيما يعرف بقضية النزاع بين العلم والدين في اطار العقائد التي تواجه المجتمعات الاسلامية اليوم وراح المسلمون يناقشونها ويتناولونها بالبحث عن حذر ويقين حينا ورفض أحيانا ، والشيء الذي ترمي اليه التيارات الآنفة الذكر هو ابعاد الدين عن مجالات توجيه الحياة اليومية وافراغ محتواه كنظام حياة كامل ، والقضية أصبحت قضية مصير بل قضية حياة أو موت ويكمن رفع التحدي في انتصار أفهام المسلمين في مواجهتهم له بمنطق الاسلام وبذلك يسهل عليهم التغلب على ما تحمله هذه التيارات من مشاكل أولا ويكمن ثانيا في نظرة التوازن والانسجام والتكامل بين جميع طاقات المسلم البدنية والروحية والعقلية ، تلك النظرة الشمولية التي تستوعب كل طاقاته وملكاته فلا تدع مجالا لأي فراغ ايديولوجي في أي جانب من جوانبه ذلك ما ينبغي على الأمة الاسلامية ودعاتها بالخصوص أن يقدموا هذا الجانب الهام من تعاليم الاسلام للناس كافة ضمن ما ينبغي أن يقدموه لهم من تعاليم هذا الدين الذي جاء دستوره هدى ونورا " وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد " .

هذا أيها الاخوة وأيتها الاخوات ما فتح الله به عليّ في هذه العجالة التي كانت بمثابة غيظ من فيض وقطرة من بحر ، وأشكركم جميعاً جزيل الشكر .

والسلام عليكم ورحمة الله وتعالى وبركاته